أسماء.. ذات النطاقين

• نسبها وإسلامها

هي أسماء ابنة أبي بكر الصدِّيق ، وأخت عائشة أم المؤمنين لأبيها ، وزوج الزبير بن العَوَّام ، حواري رسول الله وابن عمته ، وأم الفارس المِغوار الخليفة عبد الله بن الزبير . أسلمت مع السابقين الأولين وكان ترتيبها في الإسلام (الثامن عشر) ، وظلت في مكة تشارك المسلمين لأواء الدعوة ، ومرارة الأذى في سبيل الله ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة ، فكان لها ثلاثة مواقف سجلها لها تاريخ السيرة النبوية بفخار وإعزاز .

حدَّثت عن أولها ، قالت :

صنعتُ سُفرة للنبي ﷺ حين أراد أن يهاجر إلى المدينة فلم نجد لسُفرته ولا لسقائه ما نربطهما به،فقلتُ لأبي بكر:

ما أجد إلا نطاقي ، قال : شقِّيه باثنين ، فاربطي بواحد منهما السِقاء ، وبالآخر السفرة .

ورُوِيَ أن النبي قال لها حين فعلت ذلك :« أبدلكِ الله بنطاقكِ هذا نطاقين في الجنة » ، فقيل لها « ذات النطاقين ».

وحدَّثت عن الثاني فقالت : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ابن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ؟ فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله أين أبي ، فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قُرطي .

وحدَّثت عن الموقف الثالث ، فقالت : لما خرج رسول الله ﷺ إلى الهجرة ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله معه ، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قلت : كلا يا أبت ، قد ترك لنا خيراً كثيراً ، فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوّة البيت التي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم

وضعتُ عليها ثوباً ، ثم أخذتُ بيد جدي فقلت : يا أبتِ . . ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه فقال : لا بأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم .

قالت أسماء : لا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردتُ أن أسَكِّن الشيخ بذلك .

هذه هي أسماء المسلمة . . ليست امرأة فارغة همها زينتها ، وإنما هي مؤمنة همُّها رسالتها ، فلا عجب أن تكتم السر في شجاعة ، وتستقبل أبا جهل وأصحابه في قوة وتشق نطاقها وهي راضية ، وتتحمل لطم خدها وهي صابرة ، وتُحسن الحيلة لإرضاء جدها ، وهي سعيدة بما تصنع من أجل دينها ورسالتها .

● أسماء الزوجة

تزوجت أسماء الزبير قبل الهجرة ، وكلاهما مسلم خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، وامتزج الإسلام بلحمه ودمه ، فكانا مثال الزوجين المتوافقين ضمهما هدف واحد ، وطريقة واحدة ، تحت لواء واحد . . هاجر إلى المدينة فهاجرت ، وجاهد فشدَّت أزره ، وصبرت في ضرَّائه ، وشكرت في سرَّائه .

لم يمنعها مكان أبيها ، ولا شرف قومها ، أن تقف إلى جنبه في أيام الشدة والفقر ، تعمل وتكدح ، وتُعَمِّر عش الزوجية بكدِّ اليمين ، وعرق الجبين . .

قالت أسماء : تزوجني الزبير ، وما له في الأرض مال ، ولا مملوك ، ولا شيء غير فرسه ، فكنتُ أخدمه خدمة البيت كله ، وأعلف فرسه ، وأسوسه وأكفيه مئونته ، وأحشُّ له ، وأقوم عليه ، وأدق النوى لناضحه (إبله) ، وكنت أنقل النوى على رأسي من أرض الزبير ، على ثُلثي فرسخ ، وكنتُ أعجن وأسقي الماء ، وأخرز الدَّلو .

ولم تطل المدة حتى انتشرت دعوة الإسلام ، وفاض الخير على المسلمين ، وكان للزبير ـ فيما له ـ ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، وتمت كلمة ربك على المؤمنين بما صبروا ، وصدق الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤١) .

● أسماء الأم

ظل المسلمون مدة بعد الهجرة لا يُولد لهم ولد ، وأشاع اليهود أنهم سحروهم فلن ينجبوا ، حتى كذَّبهم القَدَر ، فولدت أسماء ابنها «عبد الله» فكان أول مولود في المدينة ، فاستبشر المسلمون وكبَّروا ، وولدت بعد ذلك «عروة» و«المنذر» ، وما منهم إلا عالم أو فارس ، على أن موقفها مع ابنها عبد الله هو الذي جعل التاريخ يُصغي لها سمعه ، ويكتبها في سجل الأمهات الخالدات .

بعد وفاة يزيد بن معاوية بُويع لعبد الله بن الزبير بالخلافة في معظم بلاد الإسلام : في الحجاز ، واليمن ، والعراق ، وخراسان ، وظل تسع سنوات ينادَى بأمير المؤمنين ، حتى شاءت الأقدار ـ لحظ بني أمية ـ أن تزول الخلافة من أرض الحجاز .

جاء الحجَّاج بجند الشام فحاصر ابن الزبير في مكة ، وطال المدى ، واشتد الحصار ، وتفرَّق عنه أكثر مَنْ كان معه ، فدخل عبد الله على أمه قبل قتله بعشرة أيام ، فقال لها : إن في الموت لراحة ، قالت : لعلّك تمنيته لي ؟

ما أحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك : إما قتلت فأحتسبك ، وإما ظَفَرْتَ فتقرّ عينَي ، فلما كان اليوم الذي قُتِل فيه ، دخل عليها حين رأى من الناس ما رأى من خذلانه ، فقال لها : يا أماه . . خذلني الناس ، حتى ولداي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردتُ من الدنيا ، فماذا ترين ؟

وهنا أمسك التاريخ بقلمه ليكتب موقف الأم الصبور من ابنها وفلذة كبدها ، في لحظة حاسمة من لحظات الخلود : الأم التي شاب رأسها ولم يشب قلبها ، وشاخ جسدها ولم يشخ إيمانها ، وانحنى ظهرها ولكنِ عقلها ظل مستقيماً مسدداً . . قالت أسماء : أنت والله يا بنيَّ أعلم بنفسك : إن كنتَ تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قُتِل عليه أصحابك ، ولا تُمَكِّن من رقبتك غلمان بني أمية يلعبون بها ، وإن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنت ، أهلكتَ نفسك ، وأهلكتَ من قُتِل معك ، وإن قلتَ : كنتُ فلما وهن أصحابى ضعفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ ! .. القتل أحسن .

قال : إني أخاف أن يُمَثِّل بي أهل الشام .

قالت : إنَّ الكبش لا يؤلمه سلخه بعد ذبحه .

فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً ، إلى يومي هذا ، ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحل حُرمه ، ولكني أحببتُ أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أماه ، فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك وسَلِّمي لأمر الله .

قالت : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً .

قال : جزاك الله خيراً ، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد .

قالت : لا أدعه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قُتلت على حق . ثم قالت : اللَّهم ارحم طول ذلك القيام في اللَّيل الطويل ، وذلك الظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبرِّه بأبيه وبي ، اللَّهم قد سلَّمتُه لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيتَ فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين ، وذهب عبد الله فقاتل الساعات الأخيرة قتال الأبطال ، وهو يتمثل

صورة أمه في عينيه ، وصوتها في أذنيه ، مرتجزاً منشداً :

أسما يا أسماء لا تبكني لم يبق إلا حسبي وديني

وصارم لانت به يميني

وما زال على ثباته حتى قُتِلَ ، فكبَّر أهل الشام لمقتله ، فبلغ ذلك ابن عمر فقال : الذين كبَّروا لمولده ، خير من الذين كبَّروا لموته .

● مع الحجَّاج

صلب الحجَّاج عبد الله بن الزبير مبالغة في التشفي والإرهاب ، ثم أرسل إلى أمه أسماء فأبت أن تأتيه ، فأعاد إليها الرسول : لتأتنني أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك ، فأبت وقالت : والله لا آتيه حتى يبعث إليَّ من يسحبني بقروني .

فما كان من الحجَّاج إلا أن رضخ لصلابتها ، وانطلق حتى دخل عليها ، فقال : أرأيت كيف نصر الله الحق وأظهره ؟

قالت : ربما أديل الباطل على الحق وأهله .

قال : كيف رأيتني صنعت بعدو الله .

قالت : أراك أفسدتَ على ابنى دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .

قال : إن ابنك ألحد في هذا البيت ، وقد قال الله : ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (الحج:٢٥)، وقد أذاقه الله ذاك العذاب الأليم .

قالت : كذبتَ . كان أول مولود وُلدَ في الإسلام بالمدينة ، وسُرَّ به رسول الله وحنَّكة بيده ، وكبَّر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به وكان برًّا بأبوية صوَّاماً قوَّاماً بكتاب الله ، مُعظِّماً لحُرم الله ، مبغِضاً لمن يعصي الله - أما إنَّ رسول الله حدَّثني أن في ثقيف كذَّاباً ومُبيراً (أى سفاحاً قتَّالاً) ، فأما الكذَّاب فقد رأيناه (تعنى المختار ابن عبيد الثقفى)، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه ..

فخرج الحجَّاج من عندها منكسراً يتمنى لو لم يكن لقيها ، بعد أن دخل عليها مزهواً يريد أن يتشفى .

هذه أسماء العجوز في سن المائة ، وهـذا هـو الحجَّـاج الجبار فى أوج انتصاره ، وعنفـوان طغيانـه . إنَّ الإيمـان في قلبها جعله في عينها يتضاءل حتى صار شيئاً صغيراً كالهباء ، وجعلها في عينه تمتد وتستطيل حتـى صـارت شـيئاً كـبيراً كالمارد العملاق .

وبلغ عبد الملك بن مروان ما صنع الحجَّاج مـع أسمـاء فكتب إليـه يستنكر فعلـه ، ويقـول : مالـك ولابنـة الرجـل الصالح ؟ وأوصاه بها خيراً ، ودخل عليها الحجَّـاج فقـال : يا أماه ، إنَّ أمير المؤمنين أوصانى بك فهل لك من حاجة ؟

قالت : لستُ لك بأم ، إنما أنا أم المصلوب على الثنيَّـة ، وما لى من حاجة .

وأخيراً .. آن للفارس المصلوب أن يترجل ، وينـزل مـن فوق خشبته ويُسَلِّم إلى أمه فتحنِّطـه وتكفِّنـه وتُصَـلِّى عليـه وتودعـه جـوف الثـرى ليلتقـى في دار الخلـود بأبيـه الـزبير وجده أبى بكر ، وجدته صفية ، وخالته عائشة رضي الله عنهم .

وهكذا استقبلت المصيبة الكبيرة بنفس أكبر ، وإيمان أقوى ... دخل عليها عبد الله بن عمر ، وابنها مصلوب .

فقال لها : إن هذا الجسد ليس بشيء وإنما الأرواح عند الله ، فاتقي الله واصبري .

فقالت : وما يمنعني من الصبر ، وقد أهدي رأس يحيى ابن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل ؟ !

ولم يطل بها المقام بعد ولدها ، فما هي إلا مائة يوم ـ أو أقل ـ حتى لحقت به عام ٧٣ من الهجرة ، وقد بلغت المائة عام ، لم يسقط لها سن ولم يُنكر لها عقل . رحمها الله ورضي عنها ...

* * *